

أهمية الفكر التاريخي في دراسة التراث الحضاري
من خلال كتابات المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب (1968-1883)
The Importance of Historical Thought in the Study of Cultural
Heritage Through the writings of the Tunisian historian
Hassan Hosni Abdel Wahab (1968-1883)



ط.د. حسين الاسود

جامعة الوادي - الجزائر

lassoued-hocine@univ-eloued.dz

أ.د. علي غنابزية*

جامعة الوادي - الجزائر

ghenabzia-ali@univ-eloued.dz

مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

تاريخ الاستلام: 2025/08/02 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16



ملخص:

يدرس هذا المقال شخصية بارزة في تاريخ تونس المعاصر، عرفت بعطائها العلمي لأزيد من نصف قرن من الزمن، يتعلق الأمر هنا بالعلامة "حسن حسني عبد الوهاب"

* المؤلف المراسل

أحد رواد الأدب التراثي والفكر التاريخي في العالم العربي، والذي كان له دورا كبيرا في إحياء التراث العربي الإسلامي بالبلاد التونسية وتتبعنا لمصادره.

ساهم حسن حسني عبد الوهاب من خلال ما جمعه وكتبه، وما تقلده من وظائف، في بث الروح في كيان الأمة التونسية، والمحافظة على هويتها الحضارية خلال فترة الحماية الفرنسية وما بعد الاستقلال. ومن خلال هذا المقال سنحاول التعريف بهذه الشخصية، مقدمين عصارة جهده الفكري وإنتاجه العلمي، الذي يعد رافدا مهما من روافد التراث العربي الإسلامي، والتركيز على أهمية الفكر التاريخي في دراسة التراث الحضاري في تونس وبلاد المغرب الاسلامي.

الكلمات المفتاحية: تونس - الفكر التاريخي - التراث - جامع الزيتونة -

القيروان.

Abstract:

This article studies a prominent figure in the contemporary history of Tunisia, known for his scholarly contributions for over half a century. The focus here is on "Hassan Hosni Abdel Wahab," one of the pioneers of traditional literature and historical thought in the Arab world, who played a significant role in reviving the Arab Islamic heritage in Tunisia and tracing its sources.

Hassan Hosni Abdel Wahab, through his collections and writings, as well as the positions he held, contributed to instilling a spirit within the Tunisian nation and preserving its cultural identity during the French protectorate and after independence. Through this article, we aim to introduce this figure, presenting the essence of his intellectual efforts and scientific output, which constitutes an important source of Arab Islamic heritage, while emphasising the significance of historical thought in studying the cultural heritage of Tunisia and the Islamic Maghreb.

.key words: Tunisia – historical thought – heritage – Zaytuna Mosque – Kairouan.

مقدمة: -

وقعت تونس في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي تحت سلطة الاحتلال الفرنسي، والذي عمل جاهدا على طمس هوية تونس الثقافية وإحاقها بالحضارة الغربية! وفي ظل هذه الهيمنة الاستعمارية برز اسم المؤرخ الأديب حسن حسني عبد الوهاب كأحد حراس التراث العربي الإسلامي، ومن الشخصيات المؤثرة في الساحة الثقافية التونسية وكذا العالمية.

الإشكالية: تزخر مؤلفات حسن حسني عبد الوهاب، بالأفكار التاريخية المعبرة عن التراث التونسي العريق، وهي ماثورة في ثنايا مصنفاته، ضمن السياق التاريخي المعهود. فما هي السبل التي تتبع لبروز تلك الأفكار؟ ويندرج ضمن هذا الاشكال، التساؤل عن دور الإنسان في صناعة الفكر، وأهمية العلماء بالدرجة الأولى في بزوغ الفعل الحضاري؟ وما هو المدى الذي قامت به المرأة التونسية في بناء المشاريع الكبرى؟ وفي الدرجة الثانية، ما هو الفكر التاريخي المحرك للمؤسسات في المجتمع، من مدارس ومعاهد علمية؟

منهج الدراسة: لقد أكدنا في منهج معالجة الإشكالية المطروحة على الاستقصاء، والتنقيب على الفكر التاريخي من خلال مؤلفاته، والعمل على تحليل عناصرها في إطار المنهج التاريخي، والذي أثمر الرؤية التاريخية للمعالم الحضارية في التراث التونسي العريق.

أهداف الدراسة: يهدف هذا البحث إلى دراسة حياة ومآثر هذا المفكر وتراثه، من خلال ما يلي:

- إبراز المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب، ودوره الفعال في بعث التراث التونسي.
- الوقوف عند معالم الفكر التاريخي على مستوى الإنسان، والمدرس، والمعاهد العلمية.
- وضع منهجية تاريخية لدراسة التراث، وعرض نماذج معبرة ذات أبعاد حضارية.

أولا- حياة حسن حسني عبد الوهاب منذ النشأة إلى الارتقاء العلمي.

تقتضي الدراسة التاريخية التحليلية، التعريف بالمؤرخ حسن حسني عبد الوهاب، ومساره في الحياة، والظروف التي هيأتها، حتى تبوأ هذه المكانة العلمية.

1- النشأة والمسار العلمي: ولد حسن حسني عبد الوهاب في أواخر شهر شعبان 1301هـ الموافق لليوم الحادي والعشرين من شهر جوان 1884م ببنهج عبد الوهاب رقم 25 بتونس¹، وذلك بعد احتلال فرنسا لها بنحو ثلاثة أعوام. كانت أسرة عبد الوهاب² من أسر تونس العريقة والتي كان لها شأن في الأدب والسياسة؛ فقد كان الوالد صالح بن عبد الوهاب من الأفراد التونسيين القلائل الذين تعلموا العربية بجامع الزيتونة، ودرس اللغة الفرنسية بمدرسة الرهبان (Ecole des frères) حتى أتقنها جيداً، وهو ما فتح له المجال واسعا لتولى الوظائف المرموقة بالدولة، فأضافه الفريق حسين وزير الخارجية إليه مترجماً في السفارات المتنقلة³.

وبعد الحماية الفرنسية تقلب صالح في جملة من الوظائف كعامل على الأعراض (قابس والمهدية). وعندما انتقل إلى ولاية المهدية وتولى أمرها سنة 1886م، ألحق ابنه حسن بأحد الكتاتيب فحفظ شيئاً من القرآن ثم التحق بالمدرسة الابتدائية حيث حفظ هناك الربع الأخير منه، ودرس شيئاً من علوم اللغة والدين، ثم انتقل إلى تونس بعد رجوع والده إليها، فآتم دراسته في مدرسة فرنسية، ونال الشهادة الابتدائية عام 1899م⁴.

التحق بعدها بالتعليم الثانوي بالمدرسة الصادقية، فزاول بها دراسة العربية والترجمة. ولما أتم دراسته الثانوية سافر إلى فرنسا، والتحق بمدرسة العلوم السياسية بباريس (Ecole des Sciences Politiques)⁵، وحينها توسع في دراسة القانون والسياسة والاقتصاد، ثم شاءت الأقدار ألا يستمر في دراسته، فعاد بعد عامين إلى وطنه سنة 1904م؛ نظراً لوفاة والده⁶.

بعد عودته إلى تونس انخرط حسن حسني عبد الوهاب في العمل الإداري، فالتحق أولاً بإدارة الفلاحة والتجارة قسم أملاك الدولة آخر سنة 1905م، وبعد خمس سنين

سمي رئيسا لإدارة غابات الزيتين للشمال التونسي سنة 1910م، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى التحق بإدارة المصالح الاقتصادية سنة 1916م بصفة رئيس قسم، وفي سنة 1920م سمي رئيسا لإدارة خزانة المحفوظات التونسية (Archives Générales). فاستفاد منها كثيرا في كتابة التاريخ، وتمكن من وضع فهرس لها⁷.

ثم بدأ في تولي شئون الولايات التونسية بصفة "caïd-فايد"⁸، بداية من 1 جانفي 1925م، وكان قبلها يشغل خطة رئيس مكتب بالإدارة العامة للداخلية⁹، حيث عين واليا على المثاليث (ناحية صفاقس) ثم المهديّة في آخر سنة 1928م، وفي سنة 1935م سمي واليا على الوطن القبلي (نابل وناحياتها)¹⁰، وقضى في ذلك كله نحو خمس عشرة سنة.

وعلى الرغم من بلوغه سن التقاعد فقد احتاج المسؤولون في تونس إلى خبرته وكفاءته؛ فعين في سنة 1942م مديرا لمصلحة الأوقاف، ثم اختير في 03 ماي من سنة 1943م وزيرا للقلم، حيث أشرف على إدارة الشؤون الداخلية للبلاد التونسية.

كما كان على رأس وفد الحجيج التونسيين المتوجهين نحو البقاع المقدسة شهر نوفمبر سنة 1944م، وحاملا "للصرة"¹¹، وإلى جانب حمل الصرة وقيادة الوفد، كُلف عبد الوهاب بصفته أيضا وزيرا للدولة بقراءة خطاب الملك الأمين إلى عبد العزيز آل سعود. فلم يفوت فيه عبد الوهاب التنويه بالبقاع المقدسة: «بها تؤدي الفريضة وتعالج النفوس المريضة»¹²، كما لم يفته التنويه بخصال الملك السعودي وبإنجازاته كما أكد لهف سكان شمال إفريقيا للحج وأن ما منعهم الحرب.

وظل عبد الوهاب في منصبه كوزير للقلم حتى شهر جويلية 1947م حيث أعفى نفسه من أعباء هذا المنصب، وتفرغ للتأليف، والسفر إلى الأقطار الشرقية والغربية.

ولما نالت تونس استقلالها، وفارق الموظفون الفرنسيون المصالح الإدارية دعي حسن حسني عبد الوهاب من جانب الحكومة التونسية الجديدة لرئاسة المعهد القومي للآثار

والفنون (Institut National d'Archéologie et Arts) فلبى الدعوة في سنة 1957م على الرغم من كبر سنه، فأسس متحفا للفنون الإسلامية التي كانت غائبة عن المشهد الأثري التونسي.

وفي مدة رئاسته للآثار تأسست خمسة متاحف.¹³ منها أربعة للآثار الإسلامية، وقد زودها بكل ما جمعه لخاصة نفسه من الآثار النفيسة والمتحف الإسلامية النادرة سواء أكانت مقتناة من تونس أو مشتاة من المشرق ومن عواصم أوربية.¹⁴

رغم توليه الوظائف الإدارية، فقد كان لحسن حسني عبد الوهاب نشاط علمي وثقافي متميز، فلم ينقطع عن الكتابة وإلقاء الدروس والمحاضرات.

فقد كان يقدم دروسا في التاريخ العام وخاصة التونسي في الخلدونية من سنة 1910م إلى 1924م، كما شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية خارج تونس بصفته الشخصية أو ممثلا للحكومة التونسية.

وبمناسبة مرور 50 سنة على تأسيسها، منحت جامعة العلوم بالقاهرة الدكتوراه الفخرية لحسن حسني عبد الوهاب سنة 1950م، كما منح نفس الشهادة من جامعة العلوم الجزائرية ودعي للحضور بنفسه سنة 1960م، إلا أنه لم يجب الدعوة ولسان حاله "لم أجب حيث كانت حرب التحرير قائمة على ساق حينئذ".¹⁵

سمي عضوا مشاركا في المجمع الفرنسي للنقائش والفنون الجميلة منذ سنة 1939م، وكذا في المعهد المصري، كما سمي مراسلا للمعهد التاريخي الإسباني، وعضوا في كل من المجمع العلمي العربي بدمشق وكذا المجمع العلمي العراقي في بغداد.¹⁶

ثانيا: آثار حسن حسني عبد الوهاب.

كانت حياة حسن حسني عبد الوهاب حافلة ومليئة بالإنجازات العلمية الجليلة التي تهدف إلى إحياء التراث العربي الإسلامي وبعثه من جديد، حيث لم ينقطع عن

البحث والكتابة طيلة نصف قرن من الزمن. ويمكن تصنيف مؤلفات حسن حسني عبد الوهاب كما يلي:

1- مؤلفات باللغة العربية: وهي كتب متنوعة التخصص نذكر منها.

- بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، وهو أول كتاب يصدره للقراء، طبع بتونس سنة 1912م.

- المنتخبات المدرسية للناشئة التونسية، مجموعة أدبية منتخبة من نظم ونثر البلغاء التونسيين مرتبة حسب أدوار الأدب مع مميزات كل عصر، طبع بتونس سنة 1908م. أعيد طبعه سنة 1944م بالقاهرة تحت اسم: المنتخب المدرسي من الأدب التونسي، ثم طبع مرة ثالثة بعنوان: مجمل تاريخ الأدب التونسي، بمطبعة المنار بتونس سنة 1968م.

- خلاصة تاريخ تونس، كانت أول طبعة لهذا الكتاب بتونس سنة 1918م، ثم اشتهر وأعيد طبعه عديد المرات، ويعد من المراجع الرئيسية للتاريخ التونسي، وهو يشتمل على ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر، وقد أشار عبد الوهاب إلى الغرض من إصدار هذا التأليف قائلا: «كان الباعث القوي على وضع "هذه الخلاصة": حب الوطن والشغف بأخباره، واحتياج ناشئتنا إلى مختصر في حوادث قطرهم»¹⁷.

- الإرشاد إلى قواعد الاقتصاد، طبع بتونس سنة 1919م.

- شهيرات التونسيات، بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي من الفتح الإسلامي إلى الزمن الحاضر، طبع بتونس سنة 1934م.

- الإمام المازري، وهو ترجمة لحياته وبحث عن تسلسل السند العلمي في تونس منذ الفتح الإسلامي، طبع بتونس سنة 1955م.

- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (جمع لبعض المقالات المنشورة في المجلات)، ج1، طبع بتونس سنة 1965م، أما ج2، فطبع سنة 1966م، وطبع الجزء

الثالث بعد وفات حسن حسني عبد الوهاب بأربعة سنوات تحت إشراف محمد العروسي المطوي.

2- نشریات محققة:

- أعمال الأعلام بمن بویع قبل الاحتلال من أئمة الإسلام (قسم إفريقيا وصقلية) للسان الدين ابن الخطيب الأندلسي الملقب بذي الوزارتين، طبع ببارمو سنة 1910م.
- رسائل الانتقاد (في نقد الشعر والشعراء) لمحمد بن شرف القيرواني، طبع بدمشق سنة 1911م.
- ملقى السبيل لأبي العلاء المعري، طبع بدمشق سنة 1912م، علق على حواشيها وقارن بين آراء المعري وآراء الفيلسوف الألماني شوبنهاور.
- وصف إفريقية والأندلس، وهو مأخوذ من كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، طبع بتونس سنة 1920م.
- التبصرة بالتجارة للجاحظ، طبع بدمشق سنة 1923م.
- كتاب يفعل، بحث لغوي للصاغاني، طبع بتونس سنة 1924م.
- كتاب آداب المعلمين، مما دون محمد بن سحنون عن أبيه، للإمام محمد بن سحنون، طبع بتونس سنة 1937م.
- الجمانة في إزالة الرطانة في اللهجة الأندلسية والتونسية لمجهول، طبع بالقاهرة سنة 1953م.
- رحلة التجاني في البلاد التونسية وطرابلس، لعبد الله التجاني، طبع بتونس سنة 1958م.
- أحكام السوق ليحيى بن عمر دفين سوسة (ت 289هـ / 901م)، رواية أبي جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمان القصري (ت 321هـ / 933م)، نشرته الشركة التونسية

للتوزيع، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس سنة 1975، وقد راجعه وأعدّه للنشر بعد وفاته الدكتور فرحات الدشراوي.

3- مصنّفات وأبحاث باللغة الفرنسية¹⁸:

- الاستيلاء الإسلامي على صقلية، وهو بحث حاول تقديمه في مؤتمر الجزائر 1905م، نشر بتونس سنة 1905م.
- امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي، نشر بتونس سنة 1917م.
- تطور الموسيقى العربية (في المشرق والمغرب والأندلس)، نشر بتونس سنة 1918م.
- بحث في دينارين نورمانيين بالمهدية، نشر بتونس سنة 1930م.
- شاهد عيان لفتح الأندلس، نشر بتونس سنة 1932م.
- منعرج في تاريخ الأغلبية (ثورة منصور الطنبيذي)، نشر بتونس سنة 1937م.
- ويعد كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، وورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، من أهم ما خلفه حسن حسني عبد الوهاب، رصد فيهما سير وتراجم عدد كبير من المؤلفين التونسيين في مراحل مختلفة من التاريخ، مع التوسع في الكلام عن مؤلفاتهم، وفنون أخرى، وهما العمدة في استخلاص الفكر التاريخي لدى المؤلف.

ثالثا: الفكر التاريخي عند حسن حسني عبد الوهاب.

إن الفكر التاريخي، هو الروح النابضة في الأحداث والوقائع التاريخية، والقيم التي تتلاحم معها، وتمنحها الصفة الحضارية، والتي تؤثر إيجابيا في المجتمعات البشرية، وتكون نبراسا للتطور المادي الملموس في مظاهر العمارة والفنون، فضلا عن التطور المعنوي للأفكار والمعارف والعلوم .

وعندما تصفحنا كتابات المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب، اكتشفنا فكرا تاريخيا، كان الأساس في تحريك الإنسان، واستيعاب المؤسسات، وتشديد المعالم الحضارية

والتي صارت كلها مجالات مصنفة ضمن التراث التونسي التي طبع تاريخ البلاد منذ عصور غابرة، وتحول إلى قواعد يستمد منها الباحث ملامح الفكر التاريخي الذي يستفيد منه منهجيا في صياغة التاريخ المدون، مركزا على أهمية البعد الحضاري في المسألة التاريخية.

1- الفكر التاريخي على مستوى الإنسان الفاعل في الحياة:

إن كل الإنجازات في حياة البشر، ناجمة عن فكر لدى الفاعلين في المجتمع، والذي ينبثق منه المظهر التاريخي، ويتجلى ذلك لدى الإنسان بكل فئاته، واخترنا في هذا المجال، العلماء، والمرأة:

أ- العلماء وبزوغ فجر الحضارة:

علمتنا المسيرة التاريخية للشعوب والأمم، أن كل عالم أو مؤرخ، يبرز ببعده الفكري الخاص الذي يتجلى في دروسه، أو مؤلفاته التي أثرى بها المكتبة العربية الإسلامية في عصره، وتحولت بمرور الزمن إلى قواعد فكرية يحتذيها صناع الحضارات، ويقبسون منها المعلومات التي تبني المعرفة، وتصبوا إلى التقدم الميداني¹⁹.

وذكر المؤلف في كتبه ثلة من العلماء، يصعب حصرهم، واخترنا الذين تميزوا بفعالية حضارية، وعرضنا بعض سيرتهم وإنجازاتهم كنماذج للتدبر والدراسة:

- أبو الفضل بن النحوي التوزري، المولود في سنة 433هـ، والذي كان بارعا في التصوف، وتنقل في طلب العلم، وأخذ في صفاقس الحديث الشريف على الحسن اللخمي، قيل : أنه لما وصل إليه سأله اللخمي، ما جاء بك؟ فقال: جئتك لأروي عنك صحيح البخاري، ولأنسخ تأليفك "التبصرة" فقال له اللخمي: تريد أن تحملني في كفك، يشير إلى أن عمله كله فيها. وكانت قراءته عليه في آن واحد مع الإمام محمد المازري.

ثم إنه قصد المغرب الأقصى، ودرس بسجلماسة وفاس، ولقي بها أذى كثيرا حسدا من أصحاب المناصب كالقاضي والمفتي، ولكنه بقي صامدا، وانتصر للإمام الغزالي، عندما أمر الحاكم بحرق كتابه إحياء علوم الدين. وأخيرا غادر ابن النحوي المغرب

الأقصى إلى المغرب الأوسط سنة 494، وتحول في أرجائه مبلغا العلم في تاهرت، واستقر به المقام في قلعة بني حماد، وكانت يومها مزدهرة بشتى العلوم والآداب، وفيها نظم قصيدته "المنفرجة" المشهورة²⁰، والتي لقيت قبولا وتناقلها الناس بالحفظ والشرح، وكان لها أثرها الروحي، وقيل هي مجربة لكشف الكروب والهموم، ومطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي * قد آذن ليلك بالبلج
وظلام الليل له سرج * حتى يغشاه أبو السرج²¹.

وبقي ابن النحوي في قلعة بني حماد، وبها توفي سنة 513هـ، وقبره مشهور بها²². وحياة ابن النحوي تكشف هذا الفكر التاريخي، وحركة العلماء وتنقلهم، وترفعهم عن قيود المكان، واعتبار بلاد الإسلام كلها وطن يضمهم، فابن النحوي توزري المنشأ، مغربي الإقامة، جزائري الاستقرار والإنتاج والوفاء.

— الإمام المازري: هو عبد الله محمد بن علي التميمي، المشهور بالمازري نسبة إلى مازرة بصقلية، ولا تعرف حياته الأولى، وغلب على الظن أنه ولد بفريقية عموما من مدن الساحل التونسي في حدود 453هـ، والمعتمد أن والده علي بن عمر هو المهاجر من صقلية بعد الفتنة التي حلت بها، فكانت بلاد الإسلام ملجأ لهم.

تعلم المازري في البلاد التونسية، ودرس بها ونشر العلوم الدينية والفنون على اختلاف أنواعها ومراميها، وصار حلقة علمه الإقبال من أقطار المغرب والأندلس. وهذا التراث الذي ينبغي إبرازه لبناء الوعي التاريخي، والمساهمة في تنوير العقول، وأخذ العبرة.

والذين وفدوا عليه، محمد بن تومرت، والإمام الجليل أبو بكر بن العربي، وأخذ عنه بالمراسلة ابن رشد الحفيد فيلسوف الإسلام الكبير، والقاضي عياض السبتي، والمحدث ابن أبي جمرة، وابن الحاج، وكانت وفاته بالمهدية سنة 536هـ²³.

وألف عددا من الكتب، أهمها "المعلم بفوائد مسلم" وهو أول شرح وضع على صحيح الامام مسلم القشيري²⁴. وقال عنه ابن خلدون وهو يذكر علماء المغرب

الإسلامي وعنايتهم بصحيح مسلم : «وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا، وسماه "المعلم بفوائد مسلم" اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه، ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه، وسماه "إكمال المعلم"»²⁵.

- **أبو علي النفطي:** الحسن بن محمد، والذي عرف بالسني لمناصرتة السنة، ومقاومته لأهل الأهواء من الخوارج. وكان متضلعا في علوم الشريعة وأصول الدين، خبيرا بطرق الكلام والجدل، وقد أخذ التربية عن الإمام الكبير الشيخ أبي مدين شعيب، المعروف بالغوث، دفين تلمسان، ويظهر أن اجتماعه به في مدينة تونس أو بجاية، حين أقام بها في الربع الأخير من القرن السادس. واستقر الشيخ أبو علي في بلدته نفطة وتولى التدريس بها، وحفظ أهلها من الزيغ ولاسيما في مناطق بلاد الجريد بالجنوب التونسي. وكانت وفاته بنفطة في حدود سنة 610هـ²⁶. وهذا نموذج آخر من العلماء، والذي ربط العلاقة الثقافية بين تونس والجزائر، وساهم في نشر العلم، ومحاربة الخرافة والدجل، وما زال له أتباع إلى يومنا هذا في تونس والجزائر من رجال التصوف، وصار من التراث الجدير بالدراسة العلمية.

ب- المرأة وبناء المشاريع الكبرى:

لقد شرع حسن حسني عبد الوهاب في الكتابة عن أشهر النساء في تاريخ تونس، وكان في نيته إبراز دورهن الحضاري، ومساهمتهن في تشييد صرح التراث العريق لبلادهن، وصرح بذلك لصديقه عبد الرحمن الكعاك - الذي شجعه على الكتابة في هذا الموضوع²⁷.

والكتابة عن المرأة في التراث العربي الإسلامي، هو رصيد حضاري لا يقتصر على تونس، بل هو ثناء على حضارة عريقة، مازالت تنبع بالقيم النبيلة التي تدفع الشعوب إلى تشييد حضارة جديدة، تقتبس من التراث ما يلائم التطور المعاصر. وسوف نفتبس نماذج حية من دور المرأة الذي تعدى حدود المغرب الأدنى وشع نوره إلى بلاد الإسلام.

— أم البنين الفهرية: امرأة صالحة تدعى فاطمة بنت محمد الفهري، وتكنى بأم البنين. ويرتبط تاريخها بمدينة فاس بالمغرب الأقصى، فعندما اختط إدريس الأصغر مدينة فاس، جعل قسما منها عدوة للقرويين الذين هاجروا إليها من القيروان، وأم البنين منهم، وسكنت في المدينة في عهد إدريس الثاني. ولما مات زوجها وإخوتها، ورثت منهم مالا كثيرا، فعزمت على بناء مسجد، وتحرت في بنائه كل مال حلال. وكانت في مدة بنائه صائمة حتى تم البناء، وصلت فيه شكرا لله تعالى على توفيقه إياها، وكان ذلك يوم السبت فاتح رمضان 245هـ²⁸. قال ابن خلدون: «فكأنما نبهت عزائم الملوك من بعدها، ونقلت إليه الخطبة من جامع ادريس لضيق محلته وحوار بيته»²⁹.

فكان هذا المسجد هو جامع القرويين الشهير بمدينة فاس، أكبر كلية في البلاد المراكشية³⁰. وهذا نور من أنوار الحضارة الملهمة لمن كان له قلب ينبض بالعبير، والتأسي والعمل. وكذلك من مظاهر الحضارة العريقة أن تخلف البنت والدها في العلم، مثلما كان من قصة:

— خديجة بنت الإمام سحنون بن سعيد، حامل لواء مذهب مالك في زمانه، والإمام سحنون بن سعيد التنوخي، "160-240هـ" القيرواني، والدها هو الفقيه والقاضي ونبراس زمانه³¹. وكانت ابنته ذات دين وعلم وخلق، ومحل مشورة والدها في أهم أموره، فلما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بعد أخذ رأيها. وكذلك فعل أخوها بعد وفاة والدها. وكان نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين، وأعقد العضلات. وبقيت حياتها ناصحة حتى توفيت في حدود 270هـ، ودفنت بالقيروان³².

وهكذا كان للمرأة دورها في حفظ العلم، ونشر الإسلام، وفعل الخير وهي عين الحضارة والتقدم.

— الأميرة عزيزة عثمانة: بنت أبي العباس أحمد بن عثمان داي (1598-1610م). يكفي في وصفها أنها المحسنة الكبيرة. أحسن والدها تربيتها بالتفقه في الدين

وحفظ القرآن الكريم والآداب وأصول التربية، وتزوجت حمودة باشا المرادي، وحجت واعتمرت، ولما عادت، حررت العبيد احتساباً لوجه الله الكريم، كما أوقفت ما تملكه من الريع والعقار، وجعلته وقفاً على البر والإحسان والمعروف. وأقامت مارستان (مستشفى) داخل الحاضرة لمعالجة أصناف الآلام، وصار يسمى المستشفى الصادقي. (تحول في عهد الاستقلال إلى مستشفى جامعي، وخلد اسمها في لافتته سنة 1960، باسم مستشفى عزيزة عثمانة). كما جعلت وقفاً لعقود العبيد، وآخر لختان أولاد الفقراء وكسائهم يوم عاشوراء من كل عام، وجعلت وقفاً آخر لتزويج الشباب، وكأن المتنبي يعينها بقوله: ولو كان النساء كمثل هذي ** لفضلت النساء على الرجال³³

ولقد لبث داعي ربها سنة 1080هـ/1669م، وحزن على وفاتها الشعب التونسي بأسره، لأنه فقد بموتها امرأة صالحة سخية، وورثت ذلك لابنتها فاطمة التي ضاهتها في السخاء وفعل الخير، وأوقفت مثلها الدور والعقارات³⁴. فتأمل في صناعة الخير، والتفنن فيه، انطلاقاً من وعي عميق، وفهم للدين دقيق، وتحلى في هذا السلوك، والبعد الحضاري الراقى، والسامي في مقامات العرفان والتقوى.

2- الفكر التاريخي والمؤسسات العلمية في المجتمع:

لقد بث العلماء في المجتمع فكرهم، وخلدوه من خلال المؤسسات الثقافية والمراكز العلمية، كالمدارس بشتى مراحلها، والمعاهد العليا التي كان مقرها بالجامع الكبرى في القيروان ومدينة تونس، وإلى جانبها أسست الخزائن التي احتوت نفائس الكتب وخصوصاً في بيت الحكمة التونسي العريق، وشاع صيتها، وانتقل أثرها إلى البلاد الشرقية، بل تعدى ذلك إلى الضفة الشمالية للمتوسط في بلاد أوروبا.

أ- المدارس ومنطلقات الفكر الإنساني:

إن المدرسة في التراث الإنساني هي منطلق الأفكار، ونشوء القيم وترسيخها في نفوس المتعلمين، ومن خلالها يتأسس الفعل الحضاري في أشكاله الثقافية والمعرفية،

ويتعداه إلى المظاهر المادية، ولهذا حرصت الحضارة العربية الإسلامية على هذا المبدأ، وكانت أول آية نزلت من القرآن الكريم تدعو إلى القراءة والتعلم، بقوله تعالى «اقرأ باسم ربك».

- التعليم في المدارس: يمثل التعليم المدرسي في حاضرة تونس والقيروان امتدادا للتعليم الذي كان في بلاد الشرق؛ فعندما قدمت جحافل جيوش فتح بلاد المغرب، كان المعلم جنديا في خندق آخر لحماية أهل البلاد من الانحرافات الفكرية، وهذا دفع الأمراء والقادة مثل عقبة بن نافع وموسى بن نصير وغيرهما إلى الاعتناء الشديد بتعليم أحكام الإسلام لأبناء القيروان بالدرجة الأولى، لأنها الحاضرة الأساسية، ثم انتشر في بقية المدن. ولم يمض ربع قرن فقط على تأسيس القيروان حتى وجدت بها الكتاتيب الكثيرة للتعليم. وحينها تسنى لأبناء العرب والبربر على حد سواء، أن يتلقوا التعليم الابتدائي في كل حي من أحياء العاصمة القيروانية، وعمم ذلك في بلاد المغرب، وصارت الدراسة في المساجد التي يتلقون فيها شتى العلوم والمعارف، والعناية باللغة والأدب³⁵.

كما أنشأ الأغالبة في مدة حكمهم مدينتين مجاورتين للقيروان، وهما: "العباسية" ثم "رقادة" وعرفت تلك المدن نخضة علمية وفكرية، ولاسيما من الذين نزحوا إليها من الأصفاع المغربية والأندلس³⁶.

وتوالت العصور الإسلامية، وانتشرت المدارس ولاسيما في العهد الحفصي، إذ انتشرت مدارس التعليم القرآني بمدينة تونس التي اتخذوها عاصمة لدولتهم، وارتفع مقام العلم والأدب، من لغة ونحو وتاريخ وحديث، فظهر بالخصوص العلامة "ابن خلدون" واضع أصول التاريخ الحديث، والإمام "ابن عرفة" وتلميذه "الأبي" شارح صحيح مسلم والمدونة، واشتهر علماء وأدباء تونسيون كثيرون، كانوا ثمرة تلك المدارس العلمية³⁷.

ب- معاهد التعليم الكبرى في تونس:

لقد تطور التعليم في تونس في العصور الزاهية، وتطلب الأمر فتح معاهد عليا، تؤهل خريجي المدارس القرآنية، وترفع من مستواهم العلمي، وحينها برز معاهدان قاما بدور استمر إلى عدة قرون، ووصل اشعاعهما إلى العصر الحديث، ولاسيما جامع الزيتونة.

- جامع عقبة بن نافع: وهو مسجد القيروان الكبير وهو أول مسجد أسس في هذه البلاد، والذي وضع أساسه الفاتح عقبة بن نافع الفهري وأصحابه في منتصف القرن الأول الهجري. وصار قلعة علمية بارزة، فقد درس فيه "عكرمة بن عبد الله" مولى عبد الله ابن عباس، واستمرت العلوم الدينية تدرس فيه، وكانت حلقاته مكتظة بالطلبة من أقطار افريقية والمغرب والأندلس وحتى من السودان الغربي، وكانت الدراسة على نمط الجوامع العظمى التي شيدت بعده بعدة قرون³⁸.

ولم يقتصر دوره في التعليم والصلاة، بل تحول إلى مركز للحياة الاجتماعية في البلاد، فيعقد - الأمراء الأغالبة والصنهاجيين - في رحابه اجتماعاتهم العامة لأخذ رأي الأمة في الشؤون المهمة التي يعزمون على فعلها مثل تجهيز الغزوات البعيدة، حتى يشترك الشعب في تلك المعارك. وهذا يدل على دور المعاهد التربوي، وهو من أسس النهوض الحضاري للأمم، والمحافظة على سميتها وتقدمها³⁹.

ومما ذكره الخضر حسين: «واستمر جامع القيروان يخرج أكابر الفقهاء الذين بلغوا درجة الاستنباط أو الترجيح بين الآراء، وألفوا وأحكموا صناعة التأليف، كما أخرج في المائة الثالثة محمد بن إبراهيم بن عبدوسي، والقاضي موسى بن عمران المعروف بالقطان، وأخرج في المائة الرابعة عبد الله بن أبي زيد صاحب كتاب النوادر، وأخرج في المائة الخامسة عبد الحميد المعروف بابن الصائغ، وعلي بن محمد المعروف باللخمي، وعبد الخالق السبوري، وبين يدي هؤلاء الاساتذة، تخرج الإمام محمد بن علي المعروف بالمازري»⁴⁰. واستمر دور جامع القيروان الفعال في التعليم والتربية إلى القرن الخامس حين انتقلت الحركة العلمية إلى مدينة تونس عاصمة الحضارة الجديدة⁴¹.

- **جامع الزيتونة المعمور:** وهو المعهد الثاني في تأسيسه في مدينة تونس، واختطه القائد الأموي حسان بن النعمان الغساني حوالي سنة 80هـ/699م في شكله البسيط، ثم أعاد بناءه القائد الأموي عبد الله بن الجحباب في سنة 116هـ/734م على التحقيق. وجدده كذلك أبو إبراهيم أحمد بن محمد الأغلي، وأتمه أخوه زيادة الله الثاني 250هـ/866م كما نقش في جدار المسجد⁴². وهذا التسلسل التاريخي يدل على الاهتمام البالغ بالمراكز العلمية، وهي سمة الحضارة ورسوخ القوة الذاتية في المجتمع المسلم المغاربي.

أما التعليم في هذا الجامع فيرجع إلى أوائل القرن الثالث للهجرة⁴³، ورويدا بدأ يذيع صيته، ويستقطب الطلاب من مختلف الأنحاء، بعد انتقال كرسي الإمامة إلى مدينة تونس، وظهر في المائة السابعة علماء أجلاء؛ مثل أبي أحمد المعروف بابن زيتون، وظهر في المائة الثامنة أعلام يشار إليهم بالبنان مثل محمد بن عبد السلام الهواري، ومحمد بن هارون الكناني، وأبو عبد الله بن عرفة، وأبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، وأبو القاسم البرزلي⁴⁴.

وأسس الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد، مكتبة زاخر بالنفائس في جامع الزيتونة، ولكنها عند دخول الإسبان إلى تونس، عاثوا فيها خرابا، وأتلفوا كتبها تحت حوافر الخيل، وانتشرت أوراقها القيمة في الطرقات، ولم يبق من تلك المكتبة إلا بعض النسخ من صحيح الامام البخاري⁴⁵.

وحتى ندرك الهدف من هذه الدراسة، وقد اتضحت معالمها، في أهمية عالم الأفكار في تأسيس حضارة، معتمدين على تراثنا الزاخر والثري، الذي هو رصيد مركز، يستدعى في حينه للبعث الحضاري القادم، كما أكد ذلك مالك بن نبي: « وكانت الأمة تقدم تضحياتها لبناء المدارس والمساجد من أجل البعث الفكري والبعث الروحي، اللذين هما عماد كل حضارة في سيرها الحثيث »⁴⁶.

خاتمة:

يعد حسن حسني عبد الوهاب أنموذجا قل نظيره في الحياة الثقافية والفكرية التونسية خلال القرن الماضي، فقد جمع بين الحياة الإدارية والسياسية، وبين المساهمة اللافتة في الحياة الثقافية والفكرية، داخل تونس وخارجها.

- كان شديد الحرص على إبراز معالم التراث العربي الإسلامي لتونس، والمساهمة في بناء الصرح الحضاري للبلاد التونسية على مَرَّ العصور.

- الاعتناء بدراسة تاريخ القطر التونسي منذ الفتح الإسلامي وحتى قبل ذلك، وإلى التضلّع في شتى ميادين المعرفة، كاللغة والأدب والفقه والآثار والنقود وغير ذلك، فكان ميلاد كتاب (الورقات) ثم (كتاب العمر) كصورة مصغرة لحركة مؤلفاته العلمية.

- الاهتمام بالتراث المكتوب، والتعريف بالرجال الذين أنجبته تونس، فنبغوا في جميع أصناف العلوم والفنون.

وهكذا يعد إنتاج عبد الوهاب من أهم المصادر المعاصرة التي عملت على إحياء التراث العربي الإسلامي عموما والتونسي بالخصوص، ومرجعا لا يمكن الاستغناء عليه للمؤرخ والأديب.

-الهوامش والإحالات:

¹ - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تق، حمادي الساحلي، دار الجنوب، تونس، 2015م، ص177. غير أن بعض الوثائق الأرشيفية تؤكد أنه ولد عام 1883م وليس سنة 1884م، يظهر ذلك في الوثيقة الأرشيفية رقم 182 الصادرة بتاريخ 1931/11/28م الموجودة بالأرشيف الوطني التونسي، الملف: S.F, C13, D3/9، ويؤكد ذلك محمد حمدان في كتابه، أعلام الأعلام، الصادر عن المركز القومي للتوثيق بتونس سنة 1991م، الصفحات 210-211، وكذا الدكتور جلول ريدان في كتابه، حسن حسني عبد الوهاب 1883-1968، الصادر عن منشورات نيرفانا بتونس سنة 2010، الصفحة 41.

- 2 - عبد الوهاب: هو اللقب العائلي نسبة إلى الجد عبد الوهاب بن يوسف التجيبي الذي كان يدير الحرس الأهلي للبلاد وهم (الخوانب)، ويرأس التشريفات في مدة البايات الحسينيين من عهد محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي إلى أيام المشير أحمد باي الأول. للمزيد عن هذه العائلة، ينظر. الأرشيف الوطني التونسي. - S.E, C539, D14, Famill Abdul Waheb .
- 3 - انظر، " أربعينية العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب"، نشره النادي الثقافي (أبو القاسم الشابي)، مطبعة المنار، تونس، 10 جانفي 1969م، ص72.
- 4 - حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مر، محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1990م، مج01، ص18.
- 5 - ينظر، الحوليات التونسية، مر، جورج طعمة، بيروت-لبنان، 1975، صص36-37-38.
- 6 - الأرشيف الوطني التونسي. -S.E, C539, D14, Famill Abdul Waheb .
- 7 - محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1984م، ج3، ص337.
- 8 - يعد القايد الرجل المهم الذي تدور حوله كل دوايب إدارة الحماية الاستعمارية الفرنسية، وكان هو أداة هذه الإدارة عبر الوزير الأول التونسي. للمزيد ينظر، سليم قضوي، "قياد البلاد التونسية (1860-1937)"، مذكرة دكتوراه، إشراف، الهادي تيمومي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2000م.
- 9 - الأرشيف الوطني التونسي، تسميات. - S.A, C201, D20/10.
- 10 - الأرشيف الوطني التونسي. -S.A, C201, D20/27, Mouvement de séculier .
- 11 - الصرة: هدايا تُرسل مع الحاج إلى الأماكن المقدسة. ينظر، محمد بن الخوجة، "الصرة كيف كانت نشأتها وكيف استقر قرارها"، المجلة الزيتونية، ج5، جانفي 1937م.
- 12 - خطاب قرأه، حسن حسني عبد الوهاب، "من صاحب المملكة التونسية إلى عاهل الحرمين الشريفين"، مجلة الثريا، نوفمبر 1944م، ص04.
- 13 - محمد محفوظ، مرجع سابق، ص339.
- 14 - محمد رشاد الحمزاوي، "مشاكل اللغة من خلال حياة حسن حسني عبد الوهاب وأعماله بجمع اللغة العربية"، حوليات الجامعة التونسية، ع06، 1969م، ص42.
- 15 - حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مج01، مصدر سابق، ص24.
- 16 - أربعينية العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب، مصدر سابق، ص72.
- 17 - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مصدر سابق، ص6.
- 18 - نقلت هذه البحوث إلى اللغة العربية ونشرت في الجزء الثالث من كتاب الورقات.

- 19 - انظر: خالد عائشة، " الفكر التاريخي عند الزركشي(ت بعد 894هـ/1489م)"، مجلة قيس للدراسات الاجتماعية والانسانية، المجلد1، العدد01، جوان 2017، ص 20. حكيمة زيتوني، " فكر محمد بن سليمان الجزولي: مقارنة أولية"، مجلة قيس للدراسات الاجتماعية والانسانية، المجلد3، العدد02، ديسمبر 2019، ص 336.
- 20 - حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مر محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، مج2، ص ص 464-465.
- 21 - انظر: بن علي قراني، توفيق مزاري عبد الصمد، "أبو الفضل بن النحوي(ت513هـ) وتأثيره في الحياة العلمية والسياسية ببلاد المغرب(434-513هـ/1042-1116م)، المجلة التاريخية الجزائرية، مج6، العدد01، 2022، ص 273.
- 22 - حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر ، مج2، ص ص 465-466.
- 23 - نفسه، ص ص 496-497.
- 24 - حسن حسني عبد الوهاب ، الإمام المازري، دار الكتب الشرقية ، تونس، ب ت ط، ص 59.
- 25 - ابن خلدون المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص 353
- 26 -انظر، كتاب العمر، مج2، ص ص 476-478.
- 27 - حسن حسني عبد الوهاب، شهرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1353(1934)، ص 03.
- 28 - نفسه، ص ص 20-21.
- 29 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مر سهيا ادريس، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2000، ج4، ص 20.
- 30 - حسن حسني عبد الوهاب، شهرات التونسيات، ص 21.
- 31 - انظر، كتاب العمر، مج2، ص ص 585-586.
- 32 - حسن حسني عبد الوهاب، شهرات التونسيات، ص 24.
- 33 - نفسه، ص ص 89-91.
- 34 - الصادق الزمري، أعلام تونسيون، تق، تر، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1986، ص ص 28-29.
- 35 - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1965، ج1، ص ص 79-80.
- 36 - نفسه، ص 71.
- 37 - حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ص 40.
- 38 - حسن حسني عبد الوهاب ،ورقات، ج1، ص ص 106-107.

- 39 - نفسه، ص ص 108-114.
- 40 - محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، تق، علي الرضا الحسيني، دار النوادر، ط1، بيروت، 2010، ص 10-9.
- 41 - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج1، ص ص 108-115.
- 42 - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج1، ص ص 115-116.
- 43 - نفسه، ص 124.
- 44 - محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، المرجع السابق، ص 10.
- 45 - نفسه، ص 25.
- 46 - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط4، 2000، ص 36.